إمرأة لا تعرف اليأس

أن تظل روحك مشرقة حتى في أحلك الأوقات

مجازر ومشاهد لا تُنسى

مجزرة الفرن في بستان القصر 7-9-2012

كان يوماً لا ينسى من شدة الأسى والحزن والألم الذي رأته الناس في ذلك اليوم، فلا يخطر على بال إنسان أن من يذهب ليحضر قوت يومه من الخبز أنه سيقتل في سبيل ذلك.

كان ليلة القدر في رمضان جاء قريبنا لينادي زوج أختي للذهاب للفرن فقال له: أنه متعب اليوم وسيذهبون غداً، كانوا سيذهبون في السوزوكي مع جيراننا في سيارة السوزوكي، ذهب شباب هذه العائلة المكونة من شابين متزوجين وشابين كان عرسهم في عيد الفطر وشاب بعمر ال 14 وصهرهم زوج ابنتهم الوحيدة والأب وابن خالهم، هذا الموكب من الشباب الذين كان يحبهم كل أهل الحي لأنهم كانوا يساعدون جميع أهل الحي ويلبون لهم احتياجاتهم، سقط هذا الموكب من هذه العائلة الكريمة كلهم بين قتيل وجريح فاستشهد أحد الشباب المتزوجين والاثنين العرسان والرابع استشهد أيضاً وصهرهم الوحيد أما الابن الأكبر و الأب وابن الخال فقد أصيبوا بجروح خطيرة بسبب قذائف النظام للفرن عندما كانت الناس تقف طوابير لتحضر ما يسد رمقها من الخبز، وضعوهم في السيارة وجاءوا بهم إلى بيتهم، لا أنسى منظر أمهم التي صارت تزغرد وتخاطب أبنائها الشهداء قائلة: كنتم ستصبحون عرساناً في العيد لكنكم استعجلتم، عم الحزن في الحي بسبب ما حصل، وعندما كان الناس يذهبون لعزاء الأم تقول لهم: لماذا تعزونني أنا الخنساء أم الشهداء، كنت عندما أنظر إليها من الشرفة لا أتمالك نفسي من البكاء وأنا أراها وحيدة بعد أن كان عندها عزوة من أولادها الشباب.

مجزرة مشفى دار الشفاء 22-11- 2012

كانت الناس تركض في الشوارع والرجال تصيح الله أكبر ، كنت وحدي أحضر بعض الأغراض للمنزل ركبت في أي حافلة لا أعرف إلى أين، والحافلة التي أمامي تم قصفها صرت أمشي بين الأشلاء والدماء وعندما عدت للمنزل كانت أرجلي كمن سبح في بحر من الدم، والسؤال الذي يدور في بالي وبال كل هؤلاء الناس لماذا يستهدف هذا النظام الناس الأبرياء والضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة.

* * * * *

لم يتركونا هملاً

عوداً إلى قصتي أنا نور من مدينة حلب نشأت في حي الميدان، عندما أردت السفر لتركيا قال لي أبي: : اذهبي وابدئي حياتك الجديدة فسلاحك "مهنتك" بيدك.

نحن خمس بنات، كانت أمي ربة منزل وأبي خريـج تجارة واقتصاد عشنا تلك الطفولة الجميلة المليئة بالمغامرات والبراءة والتي كانت جميلة بكل ما فيها، حتى مشاكل المدرسة وتعليقات المعلمة أثناء عقابي كانت جميلة.

كنا نعيش في حي الميدان بحلب، كنا سعداء جداً بكل شيء ببيتنا، بعلاقاتنا، بجيراننا الذي كان فنجان القهوة الصباحي معهم أول ما أفعله في يومي، والذي أفتقدها جداً في حياتي اليوم.

عندما وصلت للصف التاسع قلت لأهلي أني لا أريد أن أكمل في الدراسة فقال أبي: اختاري مهنة، فذهبت لتعلم الخياطة لكن لم أنجح ولم أحب تلك المهنة ثم تعلمت مهنة (الكوافيرة) التي أحببتها وتعلمتها فوراً خلال سبع شهور فقط، حتى أختي الأصغر مني تعلمت مني قبل زواجها الثاني واختي الأخرى تعلمت الخياطة وأختي التي بعدها درست الفيزياء والكيمياء والصغرى مدرسة أدب عربي وأخي الشاب درس التجارة والاقتصاد، وهكذا أهلي لم يتركوا واحداً منا دون شيء يتعلمه في الحياة وهو السلاح الذي تركه أبي في يدنا.

وتكبر همومنا كلما مر الزمن فأختي التي تصغرني ب 11 شهر والتي كانت توأم روحي والتي كانت تلبس مثلي وتمشي مثلي، حتى أن كل الناس كان يحسوننا توأماً ، تزوجت أختي من أحد أقاربنا التي عاشت معه خمس سنين صعبة جداً قبل انفصالها عنه، فقد كانت تأتي إلينا وتشكو لنا من ضربها وتجويعها وإذلالها ، وفي آخر المطاف وصل بها الأمر بالتفكير بالانتحار فانفصلت عنه ، ولكن لم أنس الألم التي كانت تعيشه كل يوم في هذه السنين، بعدها صارت تنزل معي للصالون وتتعلم مهنتي حتى كادت تسبقني بفنها ، ثم تزوجت بعد فترة من رجل آخر ولله الحمد وهذا الرجل أعزها وأكمل لها تعليمها وعوضها الله عن كل شيء، أما أنا فتزوجت من أحد أقاربنا أيضاً بعد أن التقينا صدفة وتقدم للزواج وبعد محاولات عديدة وافق أبي على تزويجي إياه، فعشت أياماً جميلة في البداية وما هي إلا فترة قصيرة حتى انقلبت حياتي واختفى ذلك الحب وتلك المشاعر، وبدأت الإهانات والتعنيف وحتى الضرب، أصبت بخيبة أمل كبيرة وبعد فترة من الزمن انتقلنا للعيش في بيت خاص بنا، ولكن لم تتحسن الأمور فأنا افتتحت صالون تجميل وبدأ الخلاف يتطور بسبب أن زوجي لا يريدني أن أعمل حتى أن الأمور وصلت للطلاق بسبب هذا الأمر، لكنني كنت مصممة على الاستمرار بعملي فقد كان المفرج الوحيد لي من حياتي الخالية من الحب في البيت والمليئة بالمشاكل، بدأ عملي يتطور وصرت لا أذهب في كل الأيام بسبب وجود فتيات في الصالون يقومون بعملي، حتى حالتي المادية الجيدة كانت سبباً في سعادتي فلا مشكلة عندي إن لم أطبخ في يوم من الأيام فأنا قادرة على شراء الطعام الجاهز.

في هذه الفترة رُزقت بخمس أطفال وبعد فترة أثناء الحرب رُزقت بطفلي الأخير فصاروا ستة أطفال ،كنت أهتم بأطفالي كثيراً وفي أوقات فراغي كنت أهتم بهم وبدراستهم وأحضر لهم كل ما يحتاجون، وأولادي عاملتهم بلطف وحنان ولما كبروا اعتبرت نفسي صديقتهم أسمع لهم واهتم بأمورهم فهم يحتاجون لذلك وأنا لا أنسى أن أمي أبداً لم تعتبرنا صديقاتها وكان كل شيء ممنوع حتى أن تشعري بالحب، وكما ذكرت حياتي كانت مستقرة مادياً فعملي كان جيداً جداً أما المنزل فقد جعلت اهتمامي الأول رعاية أطفالي وتلبية احتياجاتهم، إلى أن بدأت الحرب التي غيرت كل شيء.

* * * * *

هروب من الموت

كنت أسكن في حي من أحياء حلب وكان عملي هناك، كان بيتي لا ينقصه شيء ، مع بداية الثورة صار حينا مستهدفاً من قبل قوات النظام وبدأ القصف العشوائي الذي جعلنا نترك بيتنا بكل ما فيه ونلجأ لمنطقة أخرى حفاظاً على حياتنا، نزحنا إلى حي أخر في مدينة حلب مع بداية عام 2012 إلى معمل كان يعمل فيه زوجي ورضينا بالحالة الصعبة التي كنا نعيشها ومع ذلك لم تنتهي المخاطر فالمنطقة كان يسيطر عليها الجيش الحر لنتفاجأ بالأسلحة فوق رأسنا قالوا لنا: ماذا تفعلون هنا قلنا: نزحنا من بيتنا بسبب القصف ونعيش هنا، فما كان إلا أن كبلوا زوجي واقتادوه معهم، وبعد قليل جاءني اتصال من قبلهم بأنهم يريدون مبلغ مليون ونصف كفدية وإلا سيرمون جثته أمامي، قلت لهم: أني لا أملك هذا المبلغ وأني وحيدة مع أطفالي قالوا: إذا سنقتله إن لم تحضري المال ، ثم تواصلت مع معلمه وحكيت له ما جرى فقال لي: سآتي أنا وأحل الموضوع، وفعلاً أحضر المال كفدية وتم الإفراج عن زوجي، واشترطوا عليه أن يخلي المكان قال لهم: لا مكان يذهبوا إليه فقالوا له : ليست مشكلتنا.

ممنوع العبور

مجبرين بقينا في المكان الذي كنا فيه فالنظام يقصف منطقة الجيش الحر وممنوع على أحد العبور لمناطقه لنعيش بين نارين، صرت أصلي وأبكي وأدعو، بقينا في المعمل نعيش دون صوت ودون استخدام للضوء في الليل ، حتى في مرة اضطرينا لاستخدام الضوء فضُرب الرصاص علينا فوراً فقلت لزوجي: لن نبقى هنا أبداً، كنا ننوي الخروج في الصباح وفي السادسة صباحاً وجدنا الأسلحة موجهة إلينا وعناصر من الجيش الحر في سيارة سوزوكي يقولون لنا: يجب أن نخرج من هنا قال لهم زوجي: أين سنذهب ومعي أطفال صغار قالوا: لا يهمنا سنوصلكم لحي آخر، على عجالة أخذنا بعض الأغراض الضرورية ورموا بنا في حي قريب ، حاولنا العبور لمنطقة أخرى ولكن قوات النظام منعونا رغم محاولاتنا، فحتى لو كنت مدنياً و أعزلاً ومعك أطفال ورضع فلا يعني هذا شيئاً لقوات النظام طالما أنك أتيت من المناطق الخارجة عن سيطرته، كل ما عليك أن تبقى هناك لتنتظر قصف طائرة أو برميلاً ليسقط فوقك.

اضطررنا للعودة إلى منزلنا القديم على الرغم من أن المنطقة كانت تتعرض لقصف شديد ولكن لا حيلة لدينا، في هذه الفترة سافر زوجي لتركيا بسبب توقف عمله والظروف التي نعيشها، وبقيت أنا مسؤولة عن كل شيء عن تأمين الخبز والطحين وكل شيء ورعاية أطفالي، ارتفع سعر كل شيء بشكل جنوني حتى المدفأة صرت أضع فيها أي شيء لتعمل وبدأت مواد الحياة الأساسية لا تلبى إلا بصعوبة ومما زاد الوضع صعوبة أني لم أعد أعمل ولم يعد لدينا المال لتأمين الماء والكهرباء ومستلزمات الحياة.

كان منزلي في الطابق الخامس وكنت حاملاً بابني وكنت اُضطر للنزول لتأمين احتياجاتي واقف على الطابور في الفرن لا كهرباء لا ماء كل شيء يزداد صعوبة كل يوم عن يوم علاوة على ذلك قصف الطيران من قبل قوات النظام الذي لا يكاد يهدأ، في مرة استطعت تأمين بعض الطحين قلت لأولادي: سأصنع لكم فطائر محمرة ، وبينما أصنعها قصف الطيران بالقرب منا فوقع الباب فوقي من شدة الانفجار وانهدم البناء الذي وراءنا، تطاير الطحين والعجين في المنزل ووقعت المدفأة وملأ الدخان المنزل حتى لم أعد أرى أطفالي واشتعلت النار وبدأت تخرج من المدفأة ، بدأت أصرخ على الأطفال أين أنتم فقالوا: نحن في الحمام، فقد علمتهم أن يذهبوا للحمام عند حصول قصف، صرت اسمع أصوات بكائهم دون أن أراهم، كان علي أن اتخذ قراراً في لحظات هل أخرج أنا وأولادي من المنزل أم أطفئ النار أم ابقى بعد ذهاب الطيران، سكبت بعض الماء على النار وخرجت أنا وأطفالي وذهبنا لأختي التي كانت في البناء المقابل لي، قال لي زوج أختي: يجب ألا تعودي للمنزل وستبقين عندنا، جزاهم الله خيراً بقيت عندهم أكثر من ثلاث شهور، اشتدت الحرب وصار التجوال شبه ممنوعاً بعد دخول داعش والنصرة حيث تحولت الشوارع لساحة حرب بينهم حتى أنهم منعوا الناس من الخروج للمنزل.

بعد حوالي سنة من هذه الحال الشاقة، انفجرت سيارة أمام بيت أهلي ولا زلت أذكر كيف كانت الناس تركض بالطرقات كأنه يوم القيامة حتى أن الزلزال ذكرني بهذا المشهد، جاء أبي وقال لي: انزلي على القور، ذهب الناس إلى مكان تجمعوا فيه لمدة خمس ساعات ثم بدأ الناس يعودون رويداً رويداً، مع حلول عام 2014 اشتدت الأوضاع كلها في مدينة حلب ولم يبق هناك مكان آمن في كل المدينة، بعد فترة نزل زوجي من تركيا، قلت له: إما الطلاق أو تأخذنا لتركيا قال لي : ابعث لكم من المال ما يكفيكم قلت له : ليست مسألة مال فأنا أحمل مسؤولية ست أطفال وكل يوم أمر على الحواجز ولا أدري ما سيحصل معي، حتى أطفالي يذهب أحدهم ليحضر شيئاً فلا أدري يعود أم لا.

بعد فترة قصيرة وكان زوجي قد تعود على تركيا والأمان الذي فيها، وعند ضرب المدفعية وسقوط برميل في الحي المجاور لنا، صار زوجي يركض ونحن لم نتحرك من مكاننا، فنحن نعيش على قاعدة أن ما تسمع صوته من قذائف لن يقتلك أما الذي يقتلك لا تسمع صوته، قال زوجي: جهزوا أنفسكم سنذهب لتركيا، قلت له: ألم تقل لنا أنك سترسل لنا المال وتتركنا قال: هذا الخطر لا يستطيع أحد العيش به، نظرت لأمي فقالت لي: اذهبي يا ابنتي بالسلامة قلت لها: أمي لن نلتقيَ مجدداً قالت: لا؛ سنة وستعودين، كان هذا الحوار في 2014 مرت عشرة سنوات ولم نلتقي للآن، أختي التي كان عمرها 18 سنة صار 28 سنة ولم نجتمع وأنا أخواتي صرنا في شتى بقاع الأرض بعض في أوروبا وبعض في ولايات تركية وبعض في سورية وهذا العام الذي قالت عنه أمي لم ينتهي بعد.

* * * * *

ثمن الأمان

كانت رحلة خروجي من حلب لتركيا صعبة جداً حيث خرجنا في سيارة تكسي قديمة جداً من كراج هنانو في حلب في الساعة السادسة صباحاً كنت أجلس في الخلف أنا وست أطفال وكنا في الشهر الثامن والحر شديد ، وكان عليك أن تغير شخصك وتوجهك ولباسك عند كل حاجز فعند حواجز داعش يجب أن أغطي وجهي وعند حواجز النظام يجب أن أكشف وجهي وأظهر لهم التأييد والسب على الثورة وعند حواجز النصرة شيء آخر، استغرقت الرحلة الشاقة 12 ساعة وعند وصولنا لمعبر كلس كان قد أُغلق، قال لنا السائق: تنامون عندي الليلة وتغيرون ثيابكم وتستحمون وفي الصباح ننطلق رفضت وقلت لزوجي: أعدني إلى حلب، لا أريد البقاء عند أحد، وكان الخطف منتشراً جداً في تلك الآونة.

حاول زوجي أن يصبرني وقال لي: لن يحدث شيء ، قلت: إذاً أبقى في السيارة إلى ، اليوم التالي، وفعلاً بقيت قليلاً ثم نظرت لحاجز قريب لعناصر من الجيش الحر وهم يحملون السلاح أصابني الخوف وقلت في نفسي: سيقتلوننا بلا شك لكن لا مشكل فهو أفضل من أتعرض للاختطاف، ثم احتاجت إحدى بناتي للذهاب لقضاء الحاجة فأخذتها مضطرة لمنزل السائق، وعندما وصلنا خرجت زوجاته وبناته لاستقبالنا شعرت بالأمان قليلاً وقتها وقالوا لي أن والدهم يحضر أناساً كثيرين فهذا عمله، ارتحت لكلامهم ودخلت وبعد أن استحممنا وبدلنا ملابسنا وضعوا لنا طعاماً فنحن منذ الصباح بلا طعام، بعدها صرت أتحدث معهم وعرفوا أني كوافيرة وقصصت لهم شعرهم كانت تلك الليلة أشبه باستراحة محارب، فمازال ينتظرني الكثير.

في الصباح صار السائق ينادي علينا لننزل فأيقظت أولادي وزوجي ثم اتجهنا للمعبر، كانت الشمس حارقة فنحن في شهر آب ولا ظل وشجرة ولا شيء، فناداني العسكري بعد أن رأى حالتي وأطفالي الستة وقال لي ادخلي، قلت له: زوجي معنا، فأدخله معنا، تواصلت مع صديقتي التي كانت في كلس وسألتها ما يجب أن أفعل فقالت: عليكم أن تأخذوا تكسي لكلس، ثم ذهبت لبيت بنت عمتي في كلس واستحممنا وغيرنا ثيابنا ثم تواصل زوجي مع أصدقائه في غازي عنتاب كي يأمنوا لنا سيارة إلى المدينة.

* * * * *

نجونا من الموت ولكن

كان زوجي يعمل في جمع القمامة على الرغم من أنه كان رئيساً للعمال في معمل نسيج في حلب، في غرفة في معمل عشنا أنا وأطفالي الستة ليس فيها شيء من مقومات الحياة فلا تهوية ولا مروحة ولا ماء و لا تلفاز ولا هاتف ولا شيء وفوق ذلك كانت الحشرات والعقارب تملؤها، 22 يوم قضيتها في هذه الغرفة لم أنم فيها إلا ساعات متقطعة من خوفي على أطفالي أن يتعرضوا لشيء من العقارب أو الحشرات، حتى عندما أريد أن أحمم أطفالي كان هناك شاب اسمه محمد يعمل مع زوجي يضع الماء في الشمس ليسخن ثم أحمم أطفالي به، بدأ الشحوب والضعف يظهر علي وعلى أطفالي، قلت لزوجي: أنا لن أصبر على هذا الوضع ولم تعجبني الإقامة هنا، قال لي: تذهبون إلى المخيم فصرخت: لا.... أعود إلى حلب وأواجه الموت ولا أعيش في مخيم، بعد قليل جاء زوجي وقال لي أنه وجد بيتاً كان البيت متواضعاً جداً حتى أنه لا بلاط فيه وحيطانه متشققة ولكني رأيته قصراً نسبة للمكان الذي كنت أعيش فيه، كان يسكن في الأعلى شاب من اللاذقية، في البداية خفت من وجوده وثارت مخاوفي أنه كيف سينزل ويصعد وأنا في المنزل وزوجي غير موجود، لكن الشاب كان محترماً وخلوقاً جداً وكان يستأذن كلما أراد الخروج أو الصعود، بعد فترة ترك المنزل وكان القسم الأعلى من البيت نظيفاً وأفضل من القسم السفلي فانتقلنا له، في هذه الفترة لم تكن لدينا القدرة على دفع إيجار المنزل البالغ 300 ليرة تركية فسكن معنا الشاب محمد الذي كان يعمل مع زوجي وكان يدفع 100 ليرة من الآجار، سكن معنا كأخ حتى أنه كان يساعدني في تربية أطفالي، بقينا قرابة السنتين نأكل من القمامة ومن الطعام المنتهي الصلاحية وفي كل مرة كنت أتذكر وأنا آكل أنه كان يُجهز الطعام لي عندما كنت في بلدي ، حتى أطفالي كانت ثيابهم ممزقة ويلبسون مما يتصدق به الناس علينا، وزوجي يعمل في جمع القمامة، ثم جاء ابن عمتي وقال له: أنه يعرف معملاً للنسيج ويريد أحداً أن يعمل معه بنفس اختصاص زوجي، وفعلاً بدأ زوجي بالعمل عنده.

امرأة لا تعرف اليأس

كان كل سكان الحي عندنا أتراك ولم أكن أعرف أحداً، وفي مرة سمعت صوت امرأة تتحدث بالسورية ففتحت الباب وقلت لها دون أي مقدمات: أنا كوافيرة وأنا جاهزة لما تريدين، قالت لي: سآتي إليكِ غداً ثم تذكرت أني لا أملك شيئاً من عدة العمل، فقلت لمحمد الشاب الذي يسكن معنا أن يقرضني ثمن سيشوار ومشط فقال لي: أنه سيهديني إياهم، وفي اليوم التالي زارتني تلك المرأة وكان تريد عمل موديل بشعرها.

أُعجبت بعملي كثيراً وقالت كم تريدين؟ فجاوبتها: 250 ليرة تركي فأنا لا أعرف ما الأسعار هنا ولكن هكذا قلت ، فقالت: هذا إيجار منزل لشهر كامل وأعطتني خمس عشرة ليرة ، بعثت ابنتي لتشتري لي بأول مبلغ جنيته في تركيا وفعلاً اشترت لي خبز وبطاطا وعدة أشياء بثلاثة ليرات فقط ، وبدأ الحلم يتجدد داخلي بأن أعود لعملي وأؤسس الصالون الخاص بي.

وفعلاً بدأت كما علمتونا في مركز العائلة أن أصعد في سلم ما أريد، افتتحت مركز تجميل، على الرغم من أنه متواضع وينقصه الكثير إلا أنه البداية المتاحة ، البعض ينظر للمظاهر ويقول لي: ما هذه الجدران وما هذا المكان، وأقول لهم: أنا بدأت وهذه بدايتي وسأظل أناضل حتى أحقق ما أريد فأنا امرأة لا تعرف اليأس والضربة التي لا تسقطني تقويني ، كثيرة هي الهموم اليوم مثل عمل زوجي غير المستقر وتطوير صالوني وتعليم الأطفال لكني لن أستسلم وسأظل أناضل حتى أحقق كل ما أتمنى.

وبالنسبة للقضية السورية فالقضية بدأت ولكنها لم تنتهي ولن تنتهي إلا أن يشاء الله شيئاً، أتمنى من الله أن يحقق لنا بحقنا وحق كل المساكين.

أما الشعب السوري الذين ما زالوا في مناطق النظام فأنا أعرف الكثير منهم، كلهم معارض ويتمنى زوال النظام اليوم قبل الغد ، لكنهم مجبورون وليس بيدهم حيلة فلا إمكانيات عندهم للخروج من سورية.

وأخيراً أنا أرى أن سوريا قد تم بيعها ولم يبق شيء اسمه سوريا مع الأسف.

*   *   *   *   *

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & Missing in Sednaya Prison